

الصناعة الصيدلية بالدولة الزيانية من خلال مؤلفات إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني (القرن الثامن الهجري/ القرن الرابع عشر الميلادي)

د. سعدي شخوم

جامعة سيدي بلعباس

تعدّ الدراسات التاريخية في جانبها الثقافي من الأبواب التي لم تنل حظاً مثل تلك الخاصة بالجوانب السياسية والاقتصادية في الفترة الوسطى، ويزيد هذا الأمر وضوحاً في الأبحاث الخاصة بالعلوم الطبيعية والعلوم العقلية التي كان بعض الفقهاء في هذه الفترة يسمونها بالعلوم الكونية في مقابلتها للعلوم الشرعية أو الدينية، ولذا لوحظ - مؤخراً - توجه لبعض الدارسين والباحثين نحو هذا الباب خاصة في الحديث عن المغرب والأندلس، في مختلف فتراته، إلا أنّ الواقع والمتابع لهذه الدراسات يجدها تزداد قلة بالنسبة للدول التي أعقبت انهيار الدولة الموحدية، ولعل الدولة الزيانية أبرز مثال يتضح فيه هذا المعنى، بل إن المصادر ذاتها لا تكاد تشفي غليل الباحث في مثل هذه الجوانب، وإذا حاولنا معرفة أسباب هذه الحالة نجدها - إضافة إلى اضطراب أحوال هذه الدولة رغم طول عمرها - يعود كذلك إلى غياب محاولات جادة تسعى لتغطية هذا الميدان، الذي يعد القرن الثامن الهجري العصر الذهبي له، حيث برز العديد من العلماء الذين ألفوا في مثل هذه العلوم، التي يعد الطب والصيدلة من أبرز جوانبها المتعلقة بجوانب ثلاثة مهمة وهي جلب المعاش الخاص بعامّة الناس وسلاطينهم، والجانب العلمي الذي يبرز من خلاله النشاط العلمي في علوم الطبيعة، وجانب الصناعة والحرف الذي يظهر مدى قوة الدولة الاقتصادية باعتبار ترابط الطب والصيدلة بالاهتمام بالنبات وحتى الحيوان والمعادن.

ومن الذين أعطوا مثال هذه الصورة في هذا القرن إبراهيم بن احمد الثغري التلمساني، الذي سنحاول من خلال بعض ما وصلنا من تأليفه إبراز هذا الجانب التي تعطي صورة مهمة تحتاج إلى إلقاء المزيد من الأضواء على هذا الميدان، والعوامل المؤثرة فيه وخصائص الصناعة النباتية والصيدلانية؛ فالدراسات في هذا الباب قليلة إذا قورنت تلك التي تخص الدولة الحفصية أو المرينية أو التي اهتمت بدولة الإسلام بالأندلس. وسنحاول في مداخلتنا هذه إبراز هذه الجوانب من خلال هذه المخطوطات التي لم تنلها أيادي التحقيق أو الإخراج والجديد الذي جاء به أطباء وصيادلة المنطقة مقارنة بغيرهم من الأمصار المغربية، وذلك بمقارنتها بمختلف الكتب المؤلفة في هذا الباب، مثل تأليف الأندلسيين كعمدة الطبيب لأبي الخير الاشبيلي والأدوية المفردة لابن الجزار، ويبقى هذا العرض في حاجة ماسة إلى التكملة في المناقشات العلمية والردود والنشر المتبوع باستدراكات علمية مركزة.

1- نظرة عامة على الطب والصيدلة في العهد الزياني

اعتمد عامة أهل تلمسان على العلاج بواسطة الطب الروحاني الذي يدور فلكه على التبرك وكرامات الأولياء ويظهر هذا كثيرا من خلال تراجم علمائها الذين كانوا يستعملون مثل هذه الطرق، إلى درجة أنّ بعض فقهاءها كانوا يعزّون بعض العوارض المرضية إلى المسائل القدرية كما بالنسبة لمسألة الرعاف (ابن مريم، م، 1986، 81-82)، وكانوا يستعملون طرقا قديمة في العلاج مثل الكي (ابن مريم، م، 1986، 135)، ولعل حديث محمد بن مرزوق التلمساني مع أحد أعلام تلك الفترة (علي بن محمد بن مسعود) حول المارستان وضرورة بنائه يدل على تأخر تلمسان عن باقي أمصار المغرب في هذا الباب في تلك الفترة، وكيف أنّه لزمه الرجوع إلى

حديث إلى النبي ﷺ حتى يستدل به على مشروعية بناء المارستان - منه نسخة مخطوطة تحت رقم بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د-2181، وقد طبع طبعة حجرية بمصر بالمطبعة السعيدية_. (ابن مرزوق، م، 1981: 415)، ولا نملك إشارة أو حديثاً عن بنائه في هذه الفترة التي سيطر فيها المرينيون عليها رغم شهرتهم في الاتساع فيها، فضلاً عن إنتشار العديد من الكتب التي تعتمد العلاج الروحاني في هذه الفترة، نذكر منها كتاب قبس النوار، وجامع الأسرار لجمال الدين يوسف بن أحمد الندرومي، ورسالة لأبي عبد الله الندرومي في خواص الحروف، وكتاب شمس الأنوار وكنوز الأسرار محمد بن الحاج بن عامر الغساني التلمساني. ولم يكن هناك ظهور بارز لحركة طيبة فحتى السلطان أبي حمو الثاني (774هـ/1372م) كان قد أصيب بمرض واستنكف عن علاجه بالتورع والصبر كما ذكر ابن خلدون (ابن خلدون، ع، 1984، ج7: 197-179)، وقد عرفت تلمسان خلال العهد الزياني في فترته الثانية بروز عدداً معتبراً من الأطباء والصيدالدة الذي كانت لهم آثار مشهودة في هذا الباب مثل أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلايسي ومحمد بن علي بن فشوش وموسى بن صمويل المالقي أبي الفضل التلمساني (محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن) (ت 845هـ) (ابن مريم، م، 1986: 220-221) ومحمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ / 1492م) المتطبب (ابن مريم، م، 1986: 237-248 / التنبكي، ا، 1989: 563-572)، الذي يعد من أهم المتطبين باعتبار وصول آثاره العديدة في هذا الفن، فقد ترك رسائل في الطب والصيدلة مثل كتابه براء العيون الرمدة في شرح المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء (الطاهري، أ، 2002: 26 / الخطاب، ع، 1985: 185)، كما له تأليف آخر يحمل عنوان " فوائد طيبة" (مخطوط، رقم، 8870)، وذكر التنبكي أنّ له شرحاً لأرجوزة ابن سينا في الطب (التنبكي، ا، 1989: 572).

ويمكن القول أنّ أثر السيطرة المرينية هي التي أدت إلى بزوغ نوع من الآثار الإيجابية في هذا الباب خاصة ببروز التآليف في العلوم الكونية خاصة الرياضيات والفلك وميدان الطب والصيدلة الذي نعرض له. ويعدّ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الثغري من أهم هؤلاء الأطباء والمتطببين لاعتبارات منها، أنّ تآليفه مازالت محفوظة في المكتبة الوطنية الجزائرية والخزانة الحسنية بالرباط، يضاف إلى هذا انه اشتهر بالطب، والصيدلة مما يجعله صيدليا أو طبيبا أكثر منه متطببا، فمخطوطه في الصيدلة الذي يوجد نسخة منه في المكتبة الوطنية (ضمن مجموع تحت 1777، وله نسخة بالخزانة الحسنية تحت رقم 8545) والذي يتحدث فيه عن الأدوية مرتبة على حروف المعجم يشير إلى معلومات هامة في مجال الصناعة الصيدلية يتلمسان، رغم قلة عدد صفحاته غلا انه إذا أضيف عليه معجم الأدوية المحفوظ بالخزانة الحسنية (تحت رقم 8544).

2- التعريف بأبي اسحق إبراهيم بن احمد الثغري التلمساني

لا توجد هنا ترجمة واضحة و مفردة لإبراهيم بن احمد رغم أنّ التنبكي ذكره في عداد أعلام تلامذة أبي عبد الله الشريف وقرنه بابن زمرك وابن خلدون الشاطبي (التنبكي، ا، 1989: 432)، وقد نقل عنه الونشريسي فتاوى متعددة في المعيار وذكره باسم إبراهيم بن محمد (الونشريسي، أ، ج1، 6: 293-195)، وقد تعددت مواضع الفتاوى في وجوب صلاة الجماعة والحث باليمين والحبس (الوقف)، ويمكن للباحث أن يتساءل عن غياب ترجمة مباشرة لهذا العلم رغم انه كان في عداد هؤلاء الأعلام، ورغم أنّ ناسخ مخطوطه في الأدوية ذكره باسم القاضي أي أنه تولى القضاء، ولعل مقارنة عابرة له لعلم آخر هو إبراهيم بن محمد المصمودي تجعلنا نتساءل هل الشخصية هي واحدة، خاصة إذا علمنا أنّ علما آخر يحمل اسم

إبراهيم بن محمد التازي- باعتبار أنّ تازة كانت ثغرا بالنسبة للمغرب الأوسط في هذه الفترة- كان من تلامذة الشريف التلمساني كذلك انه هو وإبراهيم المصمودي كنا يحملان هذا الاسم فإذا كان التازي قطعاً ليس بإبراهيم الثغري و ذلك لوفاته المتأخرة، هذا فهل يكون المصمودي هو صاحب التأليف في الطب والصيدلة، أم انه علم آخر أسقطوا ذكر اسمه من دواوين تأليفه كما هي عادة أهل المغرب كما ذكر ذلك صاعد بن عبد الله التغلبي .

3- الأدوية المتناولة بتلمسان من خلال مخطوط الثغري

المخطوط الذي ستناوله محفوظ نسخة منه بالمكتبة الوطنية الجزائرية بمجموع تحت رقم 1777، وهو مكتوب بخط مغربي بالحبر الأسود وبالإضافة إلى الأحمر المستعمل لأسماء الأدوية عدد أوراقه أربعة، مسطرته ما بين اثني عشر إلى خمسة عشر، وأبعاده 193 x 140 مم، ويعود تاريخ نسخه إلى سنة 1122هـ/1710م، ويبدأ المخطوط بـ: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الكريم، هذا ما وجدته مقيدا من خط الشيخ الفقيه القاضي أبي اسحق إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني الجزائري رحمه الله الألف الفستين) (الاشبيلي، ج2، 1995: 597) من أنواعه شيب المعجون المزدرع في البيوت وإذا عمل منه قيروطي وحمل منه على المعدة الضعيفة قواها، وكذلك إذا دهن به في الصدر والمعدة حلل، يلج الشراسيب (كذا) المتولدة من فح المعدة، وإذا عمل منه دهن وجع مع دهن السداب كان منها دهن حسن فادخل في التحليل الرياح وتقوية العصب(كذا) لأجل الاستفادة.....(السداب كذا) من قبض دهن الأمستين الذي فيه ومنافع دهن السداب من برد الكلا والمثانة والظهر

واسترخاء العصب والرهشة والإختلاج والفالج والقوة ومن سلس إذا دهنت به الصرة والمائدة والوركين وغذا دهن الظهر

ورقة 65 وجه:

نفع من الاحتلام الكثير و إذا عمل منه قيروطي في الإذن نفع من الريح فيها و غذا عمل منه قيروطي وحمل على الأرواح أشفاها من المائدة وما يسيل مناه، أهليس وهو الصغير، أكتار هو حوندقهم، أبهل هو نوع من العرعر، أنوراسيون هو اليربطون أخزروت هو العتروت، أسطخودراس هو الححال، السفراج وهو الرهالم بياض الوجه، أسرور الاريكال هو رجل الغراب، الغيسن نوع من الحمض، ءاس هو الريحان ءاسريرة هو الخيزران، أميرباريش هو شجرة أرغيس، أسل هو الرمي (كذا) وهو حلف الحصير البردي، انيار الصرخ هو نوع من ذنب الخيل، ستب هو شجرة الفتح، انمفخت هو الينيق، اطرغاليس هو مخلب الغراب، اناقاليس هي حشيشة العلق الذكر، منه أحمر اللون والثنى أزرق اللون، أدريونانواياك أسنة العصافير هو تمر الدردار، أنواسا هو السوسان، الأنما نجوني هو البهر عندنا الترفا، بابنوس أراك جام اترج انردان الفار هو المرددوش، اكليل الملك اكليل الحيلاد خراسليح هو اليرون أشنان هو القاسول، أوافينون أخنيس هو الكلحل اللسران أرزو هو.....

ورقة 65 ظهر:

الدار شيشعان، أذن الحلوف هو حرسقوفي أخبرني ذلك شيخي واخبرني غيره أزن انباته الرابعة والظابطة، الجران هو شجرة الحلب، أقوان هو الكافور وهو شجرة مريم المر درع في الحواض والديور ينفع من السوداء والبلغم الغليظ ويفتح السدد وينفع من الخفقان القلب إذا كان من أحد الحليطين المذكورين وماءوه إذا طُلي به الظهر. الغضب وتحت النشين

قوى على الجماع، أفيتون اسفننج البحر هو الجفافة وحجارة الاسفننج هي الحجارة التي يوجد في قلب الاسفنجة ائمد هو الكحل، اسرنج هو الزرقون، اسفنيون هو أبرز القطونا، انجد هو الحريق، اشند هو الحروفبشيب العجوز النبات على شجر البلطو وغيرها، اسطرك هو المبعة، ناعوريس هو خروف الخنازير الخنزير (كذا) وهذا يتوفن (كذا) اكونانه هو الذي يوجد ثمره في القمح، ويسمى كنكير ويسمى أنف الفجل وشيخ الطعام، أبو اجبان هو الشركار وتسمى حرف الأف يتلوه كران، حرف الباء، أبهار هو خبز الغراء عندنا، برثيا او برشيا .

ورقة 66 وجه:

وشان (كذا) هو كزبور البير، بقلة حملط ؟ وهي الرجل ببش هي بزر الرحلة إذا شرب نفع من برد الحما وقد ؟ ذكر لي أن رجلا كان يداوي أصحاب الحصا بإطعامهم الرحلة فينتفعون بهاببانية هي اليربون، فصل العنصل الشريف الناتى إذا أخذ لر ؟ من العنصل نصف اوقية وعُلي في اوقيتين من الزيت ودهن به أسفل القدمين ونصف الرجل قبل أن يمشي بهما على الأرض أنعاط انعاطا قويا ودوم على ذلك سبعة أيام و غن اخذ قلبه مشويا و خلط نجل ثقيف و طلي به البهق في الحمام أذهبه ولو عسر زواله برواق جالينوس ارفق أحلوا؟ تجلوا وتحلل فان سارر؟ مادة أشد أشخانا وتخفيفا وأكثر تلطيفا وتحليلا، دان نوار الأصل، والقي فيه زيت والقي على النار حتى يقلا وصب منه في الأذن من وجعها ومن ثقل السمع، فصل من ابن سمجون إذا طلي به البهق بالبصل والخل للشمس نفع منه وإذا طلي وحده على داء الثعلب انبت الشعر وإذا قطر في الأذن نفع من سيلانها بالصديد، بسيسة هو المرو وهو مسخس، بوميو.

قائمة المصادر والمراجع:

- أبو الخير الإشبيلي، 1995م، عمدة الطبيب في معرفة النبات تحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ج2.
- أحمد بن مريم المديوني، 1986، البستان في ذكر الأولياء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبلبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.
- محمد بن مرزوق التلمساني، 1989م، المسند الحسن في مآثر ملانا أبي الحسن، تحقيق ونشر ماريا خيسوس بيغرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج7.
- التنبكي، أحمد بابا، 1989م، نيل الابتهاج بتطريز الديداج، نشر كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، ج2.
- احمد الطاهري، (1423-2002م). فهرس كتب الطب والفلاحة والنبات المحفوظة بالمكتبة العامة بالرباط، إعداد أحمد الطاهري -فائزة البوكيلي- محمد حناوي، مطبعة النجا الدار البيضاء، ط1.
- محمد العربي الخطابي، 1982، فهارس الخزانة الحسنية، الطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات، مطبعة النجاح الجديدة الرباط، م2.
- الونشريسي، أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل الأندلس و المغرب، تحقيق محمد حجي ج1، ج6، ج7.

9-DERENBOURG (Hartwig) Les Manuscrits arabes de l'Escurial revues et complétées par D^f H-P-J Renaud, librairie orientaliste de Paul Guenther, Paris 1941. p. 249.